حياة الزَّمَخْشَرِيّ[1]

نسبه، لقبه، مولده:

هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الخوارزمي، جار الله، «فخر خوارزم». ولقبه الأشهر هو «جار الله»، حيث غلب عليه؛ لمجاورته بـ«مكة» زماناً طويلاً.

ولد الزمخشري بـ«زمخشر»، إحدى قرى «خوارزم»، وذلك يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب، سنة ٤٦٧هـ.

نشأته وطلبه للعلم:

نشأ الزمخشري في بيت متدين يتدثر بدثار الصلاح؛ فالوالد رجل فاضل، شفوق بأبنائه، حبسه مؤيد الملك، فتوسل إليه الزمخشري أن يفك أسره، بقوله: [من الكامل]

أَكْفَى الكُفَاةِ مُؤَيَّدَ الْمُلْكِ الَّذِي ... خَضَعَ الزَّمَانُ لِعِزِّهِ وَجَلاَلِهِ
إِرْحَمْ أَبِي لِشَبَابِهِ وَلِفَضْلِهِ ... وَارْحَمْهُ لِلضُّعَفَاءِ مِنْ أَطْفَالِهِ
إِرْحَمْ أَسِيراً لَوْ رَآهُ مِنَ العِدَا ... أَقْسَاهُمْ قَلْباً لَرَقَّ لِحَالِهِ[2]

ويقول راثياً له بعد موته: [من البسيط]

فَقَدْتُهُ فَاضِلاً فَاضَتْ مَآثِرُهُ ... أَلْعِلْمُ وَالأَدَبُ الْمَأْثُورُ وَالْوَرَعُ
صَامَ النَّهَارَ وَقَامَ اللَّيْلَ وَهْوَ شَجٍ ... مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ كَابِي اللَّوْنِ مُمْتَقِعُ[3]

ولقد كانَتْ أُمُّ صاحبنا عطوفة، رقيقة القلب، مجابة الدعاء، يحكي الزمخشري في ذلك فيقول: «كنت في صباي أمسكت عصفوراً وربطته بخيط في رجله، فأفلت من يدي فأدركته وقد دخل في خرق، فجذبته فانقطعت رجله في الخيط، فتألمت والدتي، وقالت:

---

(١) ينظر ترجمته في: الجواهر المضية في طبقات الحنفية ٢/ ١٦١، ووفيات الأعيان ٥/ ١٦٨، الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص ٢٠٩، الأنساب ٦/ ٢٩٧، إنباه الرواة ٣/ ٢٦٥، تاج التراجم ص ٧١، بغية الوعاة ٢/ ٢٧٩، الأعلام ٧/ ١٧٨، معجم المؤلفين ١٢/ ١٨٦.

(٢) ينظر: منهج الزمخشري في تفسير القرآن، للصاوي، ص ٢٥.

(٣) ينظر: السابق ص ٢٦، ورؤوس المسائل ص ٣١.

قطع الله رجلك كما قطعت رجله»[1]. وقطعتْ رجل الزمخشريّ عندما سقط عن دابته.

نشأ الزمخشري في أسرة فقيرة، فوجدنا أباه يدفع به إلى خياط ليعلمه الخياطة، ولكن الزمخشري له رغبة في طلب العلم، فيستعطف أباه، قائلاً له: «احملني إلى البلد واتركني بها»[2].

ورحل صاحبنا إلى «بخارى» في طلب العلم[3]، حيث كانت «بخارى» آنذاك كعبة العلماء، فأخذ من علمائها وتلمذ لجهابذتها.

كما أن الزمخشري زار مدينة «مرو» ولقي بها الإمام السمعاني المتوفى سنة ٥٦٢هـ، وتنقل بين «خوارزم» وخراسان» محصلاً للعلم، فحصل أصول الفقه، والحديث، والتفسير، والكلام، وعلوم العربية.

دخل الزمخشري «مكة» ـ حرسها الله ـ فجاور بها، وكانت أولى رحلاته إليها سنة ٥٠٢هـ، واتصل بشريفها علي بن حمزة بن وهاس وكان أديباً، فقويت علاقتهما.

ولكن الزمخشري يخرج من مكة راحلاً إلى وطنه الأول، ولكن ما لبث أن عاودته الحنين إليها، حتى صور ذلك في قوله: [من الطويل]

بُكَاءَ عَلَى أَيَامِ مَكَّةَ إِنَّ بِي ... إِلَيْهَا حَنِينَ النِّيبِ فَاقِدَةَ الْبَكْرِ
تَذَكَّرْتُ أَيَامِي بِهَا فَكَأَنَّنِي ... قَدِ اخْتَلَفَتْ زُرْقُ الأَسِنَّةِ فِي صَدْرِي[4]

وأخيراً عاد صاحبنا المعتزلي إلى «مكة» نحو عام ٥١٨هـ، وفي عودته مر بـ«الشام» ومدح صاحب «دمشق» تاج الدين ت٥٢٦هـ.

ويبدو أن جار الله كان مولعاً ببيت الله الحرام؛ فإن أشهر مصنفاته وأعظمها قد صنفها بين زمزم والمقام؛ كتفسيره «الكشاف»، وأطواق الذهب، ونوابغ الكلم، وربيع الأبرار، وأساس البلاغة، وغيرها[5].

ولكن ما لبث الزمخشري بعد هجوم الشيخوخة عليه أن فكر في الأفول إلى وطنه الأول، فعاد معرجاً في طريقه على «بغداد»، وبها زاره أبو السعادات هبة الله بن الشجري

---

(١) ينظر: وفيات الأعيان ٥/ ١٦٩.
(٢) ينظر: مفتاح السعادة ٢/ ١٠٠.
(٣) ينظر: وفيات الأعيان ٥/ ١٧٠.
(٤) ينظر: منهج الزمخشري في تفسير القرآن ص ٣٧.
(٥) ينظر: مفتاح السعادة ٢/ ١٠٠.

ت٥٤٢هـ، حيث هنأه بقدومه، وأثنى عليه[1].

وفي «خوارزم» استقر الزمخشري الشيخ الكهل، حيث صار «فخر خوارزم» ومرجعها الأشهر.

شيوخه:

قديماً قالوا: «مَنْ دَخَلَ فِي الْعِلْمِ وَحْدَهُ خَرَجَ وَحْدَهُ»، ويعنون بها أن من لم يكن له شَيْخٌ لا يُفْلِحُ. ولقد كان عصر الزمخشري عصر أشياخ علم وأساطين فنون، فرأيناه يتلمذ لكثير منهم، نذكر هنا أبرزهم:

ـ أبو مضر، محمود بن جرير الضبي، الأصفهاني ت ٥٠٧هـ، وهو مدخل مذهب الاعتزال إلى «خوارزم»، وأخذ عليه النحو والأدب، ورثاه الزمخشري قائلاً: [من الطويل]

وَقَائِلَةٍ مَا هٰذِهِ الدُّرَرُ الَّتِي ... تَسَاقَطُهَا عَيْنَاكَ سِمْطَيْنِ سِمْطَيْنِ

فَقُلْتُ: هُوَ الدُّرُّ الَّذِي قَدْ حَشَا بِهِ ... أَبُو مُضَرٍ أُذْنِي تَسَاقَطُ مِنْ عَيْنِي[2]

ـ أبو الحسن علي بن المظفر النيسابوري، الضرير.

ـ السديد الخياطي. وأخذ عنه الفقه.

ـ أبو السعد الجشمي: المحسن بن محمد بن كرامة، البيهقي، ت ٤٩٤هـ.

ـ ركن الدين محمد الأصولي، وأخذ عنه الأصول.

ـ أبو منصور نصر الحارث، أخذ عنه الحديث.

ـ أبو الخطاب، نصر بن أحمد بن عبد الله البَطِر، ت ٤٩٤هـ.

ـ أبو الحسين، أحمد بن علي الدامغاني، ت ٥٤٠هـ.

ـ أبو منصور الجواليقي، موهوب بن أبي طاهر، ت ٥٣٩هـ.

وغير هؤلاء كثير تخرج بهم الإمام الزمخشري.

تلاميذه:

تلمذ لجار الله الزمخشري طائفة كبيرة من طلاب العلم، حتى تخرجوا به فصاروا أئمة في اللغة وآدابها وعلوم الشرع المطهر.

وكان منهم من برز في علوم كثيرة، نذكر أشهرهم.

---

(١) ينظر: نزهة الألباء ص ٢٩٢، وبغية الوعاة ٢/ ٢٨٠.

(٢) ينظر: معجم الأدباء ١٩/ ١٢٤، ورؤوس المسائل ص ٣٨.

ـ علي بن عيسى بن حمزة بن وهاس العلوي.

ـ علي بن محمد العمراني، الخوارزمي، أبو الحسن الأديب، الملقب بـ «حجة الأفاضل وفخر المشايخ» ت٥٦٠هـ.

ـ أبو الفضل البقالي الخوارزمي الآدمي، محمد بن أبي القاسم بايجول، الملقب بـ«زين المشايخ». وقد جلس مكان الزمخشري بعده[١].

ـ أبو يوسف يعقوب بن علي بن محمد بن جعفر البلخي، كان أحد أئمة النحو والأدب.

وقد أجاز الزمخشري لكثير من طلبة العلم في عصره، والذين صاروا أئمة أعلام، منهم أبو طاهر الخشوعي، والأديب الوطواط.

مصنفاته:

ترك الزمخشري تراثاً هائلاً من التصانيف، في مختلف فنون العلم، نذكرها ههنا مرتبة على حروف المعجم[٢]

ـ أساس البلاغة (معجم يهتم بالمجاز والاستعارة).

ـ أطواق الذهب، أو النصائح الصغار (في الوعظ والرقائق).

ـ أعجب العجائب في شرح لامية العرب.

ـ الأمالي في كل فن.

ـ الأمكنة والجبال والمياه والبقاع المشهورة في أشعار العرب.

ـ الأنموذج (مختصر من المفصل في النحو).

ـ تسلية الضرير.

ـ تعليم المبتدي وإرشاد المهتدي (جمل في العربية وترجمتها بالفارسية للناشئين).

ـ جواهر اللغة.

ـ خصائص العشرة الكرام البررة.

ـ ديوان التمثيل.

ـ ديوان الرسائل.

ـ ديوان الزمخشري.

---

(١) ينظر: معجم الأدباء ١٩/ ٥.

(٢) ينظر: رؤوس المسائل، تحقيق عبد الله نذير أحمد، ص ٤٢ ـ ٤٦.

- رؤوس المسائل (في الخلاف الفقهي بين مذهبي أبي حنيفة والشافعي).
- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار (مختارات شتى من الأدب والتاريخ والعلوم).
- الرسالة الناصحة.
- سوائر الأمثال.
- شافي العي من كلام الشافعي.
- شرح أبيات كتاب سيبويه.
- شرح بعض مشكلات المفصل.
- شرح مقامات الزمخشري (النصائح الكبار).
- شقائق النعمان في حقائق النعمان (في مناقب أبي حنيفة).
- صميم العربية.
- ضالة الناشد في علم الفرائض.
- الفائق (في غريب الحديث).
- القسطاس.
- القصيدة البعوضية. (وأخرى في مسائل الغزالي).
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (وهذا التفسير المشهور الذي نقوم بتحقيقه).
- الكشف في القراءات.
- متشابه أسامي الرواة.
- المحاجاة في الأحاجي والأغلوطات.
- مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة.
- مسألة في حكمة الشهادة.
- المستقصى في أمثال العرب.
- معجم الحدود.
- المفرد والمركب (أو المؤلف).
- المفصل في تعليم النحو.
- مقامات الزمخشري.
- مقدمة الأدب (معجم عربي فارسي).
- المنهاج (في أصول الفقه).

- نزهة المستأنس.
- النصائح الصغار والبوالغ الكبار.
- نكت الأعراب في غريب الإعراب.
- نوابغ الكلم (حكم وأقوال).

ثناء العلماء عليه:

يقول تعالى في محكم آياته: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ والمعاصي عدو خطير للعلم وأهله؛ وإن العلم لا يؤتاه عاصٍ.

ولقد حبى الله الزمخشريَّ بصفات طيبة، أبرزها شدة تواضعه وأدبه الجم، وهذا العهد بأهل اللغة؛ يقول تلميذه رشيد الدين الوطواط عنه: «...وقد جرى بيني وبينه في حياته وأوقات راحته مما يتعلق بفنون الآداب وأقسام علوم العرب، مسائل أكثر من أن يحصى عددها، أو يستقصى أمدها، رجع فيها إلى كلامي، ونزل على قضيتي وأحكامي؛ فالسعيد من إذا سمع الحق، سكتت شقائق لجاجه، وسكنت صواعق حجاجه... وإنما ذكرت هذا القدر اليسير ليعلم فتيان هذه الخطة، أن هذا الإمام كان صبوراً على مرارة الحق، وحرارة الصدق، مع أنه رب هذه البضائع، وصاحب هذه الوقائع، فهو مع الحق ولو على نفسه»[1].

بل كان الزمخشري كثيراً ما يصرح بما يدل على هضمه نفسه، يتضح ذلك من جوابه للحافظ السِّلَفي حينما استجازه، يقول: «...ولا يغرنكم قول فلان فيّ...؛ فإن ذلك اغترار منهم بالظاهر المموه، وجهل بالباطن المشوه، ولعل الذين غرهم مني ما رأوا من حسن النصح للمسلمين، وتبليغ الشفقة على المستفيدين، وقطع المطامع عنهم، وإفادة المبار والصنائع عليهم، وعزة النفس والربء بها عن السفاسف الدنيات، والإقبال على خويصتي، والإعراض عما يعنيني؛ فجللت في عيونهم، وغلطوا فيّ، ونسبوا إليّ ما لست منه في قبيل ولا دبير، وما أنا فيما أقول بها ضيم لنفسي...»[2].

كان الزمخشري ديِّناً ورعاً، صالحاً، متدثراً بدثار العلم والفضل؛ نقل القفطي عن الإمام أبي اليمن زيد بن الحسن الكندي قوله: «كان الزمخشري أعلم فضلاء العجم بالعربية في زمانه، وأكثرهم اكتساباً واطلاعاً على كتبها، وبه ختم فضلاؤهم»[3].

---

(١) ينظر: رؤوس المسائل ص ٥٢.
(٢) ينظر: وفيات الأعيان ٥/ ١٧١، ومعجم الأدباء ١٩/ ١٣٢.
(٣) ينظر: إنباه الرواة ٣/ ٢٧٠.

قال القفطي: «. . .وكان ممن يضرب به المثل في علم الأدب والنحو واللغة، وصنف التصانيف في التفسير وغريب الحديث والنحو وغير ذلك، ودخل «خراسان»، وورد «العراق»، وما دخل بلداً إلا اجتمعوا عليه وتلمذوا له واستفادوا منه، وكان علامة الأدب ونسابة العرب، أقام بـ«خوارزم» تضرب إليه أكباد الإبل، وتحط بفنائه رحال الرجال، وَتُحْدَىٰ باسمه مطايا الآمال»[1].

ومدحه هبة الله بن الشجري لما التقى به في «بغداد» قائلاً: [من البسيط]

كَانَتْ مُسَاءَلَةُ الرُّكْبَانِ تُخْبِرُنِي ... عَنْ أَحْمَدَ بْنِ دُوَادٍ أَطْيَبَ الْخَبَرِ
حَتَّى الْتَقَيْنَا فَلاَ وَاللَّهِ مَا سَمِعَتْ ... أُذْنِي بِأَحْسَنَ مِمَّا قَدْ رَأَىٰ بَصَرِي[2]

ومدحه الشريف بن وهاس، قائلاً: [من الطويل]

جَمِيعُ قُرَى الدُّنْيَا سِوَى الْقَرْيَةِ الَّتِي ... تَبَوَّأَهَا دَاراً فِذَاءٌ زَمَخْشَرَا
وَأَحْرِ بِأَنْ تُزْهَىٰ زَمَخْشَرُ بِامْرِىءٍ ... إِذَا عُدَّ فِي أُسْدِ الشَّرَىٰ زَمَخَ الشُّرَىٰ[3]

وقال السيوطيُّ: «كان واسع العلم، كثير الفضل، غاية في الذكاء وجودة القريحة، متفنناً في كل علم. . .»[4].

وبالجملة فإن الزمخشري لم يغمط عليه غير مذهبه في الاعتزال؛ قال ابن حجر عنه: «إنه صالح لكنه داعية إلى الاعتزال»[5].

وفاته:

عاد الزمخشري من «مكة» ـ حرسها الله ـ وكأنه أحس بدنو أجله، فأقام بـ«خوارزم» إلى أن توفاه الله تعالى، وذلك ليلة عرفة من سنة ٥٣٨هـ بـ«جرجانية».

وقيل: إن الزمخشريَّ أوصَىٰ أن يكتب على قبره هذه الأبيات: [من الكامل]

يَا مَنْ يَرَىٰ مَدَّ الْبَعُوضِ جَنَاحَهَا ... فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الأَلْيَلِ
وَيَرَىٰ عُرُوقَ نِيَاطِهَا فِي نَحْرِهَا ... وَالْمُخَّ فِي تِلْكَ الْعِظَامِ النُّحَّلِ
إِغْفِرْ لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ فَرَطَاتِهِ ... مَا كَانَ مِنْهُ فِي الزَّمَانِ الأَوَّلِ[6]

---

(١) ينظر: إنباه الرواة ٣/ ٢٦٥.
(٢) ينظر: نزهة الألباء ص ٢٩١.
(٣) ينظر: إنباه الرواة ٣/ ٢٦٨.
(٤) ينظر: بغية الوعاة ٢/ ٢٧٩.
(٥) ينظر: لسان الميزان ٦/ ٤.
(٦) ينظر: وفيات الأعيان ٥/ ١٧٣.

«الكَشَّاف» في الميزان

بداية ينبغي التأكيد على أن صاحبنا جار الله كان معتزليًا كما أشرنا من قبل، إلا أن الرجل كان رأساً، داعية إلى مذهبه، يقول صاحب وفيات الأعيان: «كان الزمخشري معتزلي الاعتقاد، متظاهراً باعتزاله، حتى نقل عنه أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن: قل له: أبو القاسم المعتزلي بالباب. وأول ما صنف كتاب «الكشاف» كتب استفتاح الخطبة: الحمد لله الذي خلق القرآن. فيقال: إنه قيل له: متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس ولا يرغب أحد فيه. فغيره بقوله: الحمد لله الذي جعل القرآن: و«جعل» عندهم بمعنى «خلق»، والبحث في ذلك يطول ورأيت في كثير من النسخ: الحمد لله الذي أنزل القرآن. وهذا إصلاح الناس لا إصلاح المصنف. ا.هـ كلام ابن خلكان.

السبب الباعث على تصنيف الكشاف:

ذكر الزمخشري في فاتحة كشافه ما دعاه إلى تقييده، فبين أن بعض إخوانه في الدين ـ يعني في مذهب الاعتزال ـ اجتمعوا إليه وسألوه أن يملي عليهم الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، واستشفعوا عليه بكل عظيم، إلى أن رحل إلى مكة، وهو مع كل هذا يستعفي، حتى قابل الأمير، الشريف أبا الحسن بن وهاس، فصادف منه رغبة كرغبة من سأله الإقدام، فلم يملك إلا الإذعان وتلبية أمر الإمام. ولقد أنهى تفسيره ـ كما يقول ـ في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة.

منهج الزمخشري في نصرة مذهبه:

لما كان الزمخشري بهذه الجرأة من إعلان مذهبه وافتخاره وزهوه به، لم يكن بِدْعاً ـ حينئذٍ ـ أن ينتصر له بكل ما استطاع من حجاج، حتى لو اضطره ذلك إلى ليّ أعناق الآيات وتأويلها على غير لسان العرب، وإنك لتراه يدخل في تفسير الآية، وتكون بعيدة كل البعد عن معتقده، إلا أنه ـ لتمكنه من فنون القول، وبراعته في الكلام ـ يزيف ويزين التأويل حتى يدخله على قلوب كثير من الناس، مما دفع سراج الدين البلقيني ـ وقد صنف

«الكشاف على الكشاف» ـ إلى قوله: «. . . استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش؛ من قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] قال: أيُّ فوز أعظم من دخول الجنة؟! أشار به إلى عدم الرؤية[١].

وأيضاً قال ابن تيمية أثناء الكلام عن تفاسير المعتزلة: ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة، يدس البدع في كلامه وأكثر الناس لا يعلمون، كصاحب الكشاف ونحوه، حتى إنه يروج على خلق كثير من أهل السنة كثير من تفاسيرهم الباطلة[٢].

ولقد سلك الزمخشري في سبيل ذلك طرقاً ومسائل تنوعت إلى ما يلي:

ـ تأويله للفظ القرآني بما يتفق ومذهبه:

وذلك كأن يتعرض لتفسير آية فيكون لفظها على ظاهره لا يساعد مذهبه، فيذهب به إلى معنى آخر، ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، فهذه آية تثبت رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة، وهذا مردود عند المعتزلة، فيذهب الزمخشري إلى أن معنى «ناظرة» منتظرة؛ «فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظوراً إليه محال، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص، والذي يصح معه، أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي. تريد معنى التوقع والرجاء، ومنه قول القائل: [من الكامل]

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ مِنْ مَلِكٍ ... وَالْبَحْرُ دُونَكَ زِدْتَنِي نِعَمَا

وسمعت سروية مستجدية بمكة وقت الظهر، حين يغلق الناس أبوابهم ويأوون إلى مقائلهم ـ تقول: «عيينتي نويظرة إلى الله وإليكم». . .[٣].

ـ إيغاله في التأويل بالتمثيل والتخييل:

كان الزمخشري إذا حاصره النص القرآني حاول حمله على التخييل، فنراه عند تعرضه لقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] يذكر أربعة أوجه في معنى «الكرسي»، يقول في أولها: إن كرسيه لم يضق عن السماوات والأرض لبسطته وسعته، وما هو إلا تصوير لعظمته وتخييل فقط، ولا كرسي ثمة، ولا قعود، ولا قاعد؛ كقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾

---

(١) ينظر: الإتقان ١/ ١٩٠.

(٢) مقدمة في أصول التفسير ص ٣٨.

(٣) ينظر: الكشاف.

[الزمر: ٦٧]، من غير تصور قبضة وطيٍّ ويمين، وإنما هو تخييل لعظمة شأنه، وتمثيل حسن؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[1].

وطبيعي ألا يرتضي ابن المنير ـ كما سيأتي ـ كلام الزمخشري هذا فتعقبه قائلاً: «قوله في الوجه الأول: إن ذلك تخييل للعظمة، سوء أدب في الإطلاق، وبعد في الإصرار؛ فإن التخييل إنما يستعمل في الأباطيل وما ليست له حقيقة صدق، فإن يكن معنى ما قاله صحيحاً، فقد أخطأ في التعبير عنه بعبارة موهمة لا مدخل لها في الأدب الشرعي. وسيأتي له أمثالها مما يوجب الأدب أن يجتنب».

بل إن الزمخشري يتوسع في تخييله وتمثيله حتى ولو عضد مفهوم الآية حديث أو أثر؛ ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦] يقول: «وما يروون من الحديث: «ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها» والله أعلم بصحته، فإن صح فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها؛ فإنهما كانا معصومين، وكذلك كل من كان في صفتهما؛ كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، واستهلاله صارخاً من مسه: تخييل (!!) وتصوير لطمعه فيه، كأنه يمسه ويضرب بيده عليه، ويقول: هذا ممن أغويه. ونحوه من التخييل ـ قول ابن الرومي: [من الطويل]

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا ... يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ

وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلا، ولو سلط إبليس على الناس بنخسهم لامتلأت الدنيا صراخاً وعياطاً مما يبلونا به من نخسه»[2].

وما كان لابن المنير أن يترك مثل هذا الكلام حتى يتعقبه، فنراه يقول راداً عليه: «أما الحديث المذكور فمذكور في الصحاح متفق على صحته، فلا محيص له إذن من تعطيل كلامه عليه السلام بتحميله ما لا يحتمله؛ جنوحاً إلى اعتزال منتزع، في فلسفة منتزعة، في إلحاد، ظلمات بعضها فوق بعض... ثم تنظيره بتخييل ابن الرومي في شعره جرأة وسوء أدب، ولو كان معنى ما قاله صحيحاً لكانت هذه العبارة واجباً أن تجتنب، ولو كان الصراخ غير واقع من المولود لأمكن على بعد أن يكون تمثيلاً، أما وهو واقع مشاهد، فلا وجه لحمله على التخييل إلا الاعتقاد الضئيل وارتكاب الهوى الوبيل».

وإن الفطن اللبيب ليعلم يقيناً أن الذي جر المعتزلة ـ والزمخشري منهم ـ إلى هذا التحايل والتمثيل إنما هو تقديسهم للعقل مطلقاً، فقاسوا به الغائب على الشاهد، وجعلوه

---

(١) ينظر: الكشاف.

(٢) ينظر: الكشاف.

حكمهم ونبراسهم، يقول جار الله في «أطواق الذهب في المواعظ والخطب»[1] ملقباً العقل بـ«السلطان»: «امش في دينك تحت راية السلطان، ولا تقنع بالرواية عن فلان وفلان؛ فما الأسد المحتجب في عرينه، أعز من الرجل المحتج على قرينه، وما العَنْزُ الجرباء تحت الشمأل البليل، أذل من المقلد عند صاحب الدليل».

ـ حمله للآيات المتشابهات على المحكمات إذا تصادمت مع مذهبه:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] فقد حمله على قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وابن المنير يغضب على الزمخشري لصنيعه ذاك، فيقول: «هذا كما قدمته عنه من تكلفه لتنزيل الآي على وفق ما يعتقده، وأعوذ بالله من جعل القرآن تبعاً للرأي؛ وذلك أن معتقده إحالة رؤية الله تعالى؛ بناء على زعم القدرية من أن الرؤية تستلزم الجسمية والجهة، فإذا ورد عليهم النص القاطع الدال على وقوع الرؤية كقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ مالوا إلى جعله من المتشابه حتى يردوه ـ بزعمهم ـ إلى الآية التي يدعون أن ظاهرها يوافق رأيهم».

على أن الزمخشري كان ينتصر لمعتقداته من خلال تفسيره للآيات، فهو يرى ـ كغيره من المعتزلة ـ أن صاحب الكبيرة مخلد في نار جهنم، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا...﴾ الآية [النساء: ٩٣]، يقول: «فإن قلت: هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الكبائر؟ قلت: ما أَبْيَنَ الدليل، وهو تناولُ قوله: «ومن يقتل» أي قاتل كان من مسلم أو كافر، تائب أو غير تائب، إلا أن التائب أخرجه الدليل، فمن ادعى إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله»[2].

ومن ذلك انتصاره لمذهب شعيته في السحر؛ فإنهم لا يقولون به، ولا يعتقدون في السحرة، وأنت تراه في تفسير سورة الفلق التي فلقت معتقدهم في السحر، يحاول ـ كعادته ـ التملص من مفهومها، فيفسر قوله تعالى: ﴿النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، بأن المقصود النساء أو النفوس، أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في الخيوط، وينفثن عليها ويرقين، ثم يقول: «ولا تأثير لذلك، اللهم إلا إذا كان ثم إطعام شيء ضار، أو سقيه، أو إشمامه، أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه، ولكن الله عز وجل قد يفعل عند ذلك فعلاً على سبيل الامتحان الذي يتميز به الثبت على الحق، من الحشوية والجهلة من العوام، فينسبه الحشو والرعاع إليهن وإلى نفثهن، والثابتون بالقول الثابت لا

---

(١) ينظر: أطواق الذهب ص ٢٨.

(٢) ينظر: الكشاف.

يلتفتون إلى ذلك ولا يعبئون به... قال: ويجوز أن يراد بهن النساء الكيّادات من قوله: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] تشبيهاً لكيدهن بالسحر والنفث في العقد، أو اللاتي يفتنّ الرجال بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن، كأنهن يسحرن بذلك»[١].

ولقد تعرض له ابن المنير حاكماً عليه بأنه: «استفزه الهوى حتى أنكر ما عرف، وما به إلا أن يتبع اعتزاله، ويغطي بكفه وجه الغزالة».

ومن انتصاراته لمذهبه صولته وجولته في مسألة الإرادة وخلق الأفعال ـ وذلك في كثير من الآيات التي تصرح بأن للعباد مشيئة تحت مشيئة ربهم وخالقهم، فتراه يرد إرادة الله تعالى إلى معنى «اللطف» و«التوفيق»، فهو في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] تذرع بلفظ «اللطف»[٢](!!!)، فتعقبه ابن المنير قائلاً: «المعتقد الصحيح أن الله هو الذي يخلق الهدى لمن يشاء هداه، وذلك هو اللطف، لا كما يزعم الزمخشري أن الهدى ليس خلق الله وإنما العبد يخلقه نفسه، وإن أطلق الله تعالى إضافة الهدى إليه كما في هذه الآية فهو مأوّل على زعم الزمخشري بـ«لطف الله» الحامل للعبد على أن يخلق هواه. إن هذا إلا اختلاق. وهذه النزعة من توابع معتقدهم السيء في خلق الأفعال، وليس علينا هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء، وهو المسؤول ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا».

ومن انتصاراته لمعتقده إقراره وحجاجه عن مبدأ الحسن والقبح العقليين، ولما كان لا يستقيم له هذا المبدأ إلا بإزاحة ما قد يعترضه من عقبات، لجأ إلى اللف والتحايل حول آيتين من كتاب الله: الأولى: قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. والثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

فهو في الآية الأولى يعلم أنها تعارض مبدأه، فمن ثم سأل هذا السؤال: «كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل وهم محجوجون بما نصبه الله من الأدلة التي النظر فيها موصل إلى المعرفة، والرسل في أنفسهم لم يتوصلوا إلى المعرفة إلا بالنظر في تلك الأدلة، ولا عرف أنهم رسل الله إلا بالنظر فيها؟؟

ثم يجيب فيقول: قلت: الرسل منبهون عن الغفلة، وباعثون على النظر، كما ترى علماء أهل العدل والتوحيد مع تبليغ ما حملوه من تفصيل أمور الدين، وبيان أحوال التكليف وتعليم الشرائع، فكان إرسالهم إزاحة للعلة، وتتميماً لإلزام الحجة؛ لئلا يقولوا:

---

(١) ينظر: الكشاف.

(٢) ينظر: الكشاف.

لولا أرسلت إلينا رسولاً فيوقظنا من سنة الغفلة، وينبهنا لما وجب الانتباه له»[1].

ثم هو عندما يتكلم عن الآية الثانية يحس بالتساؤل نفسه، ويجيب بمثل إجابته تلك؛ يقول: «فإن قلت: الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل؛ لأن معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله، وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه، واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم، وكفرهم لذلك، لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف، والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان. قلت: بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة؛ لئلا يقولوا: كنا غافلين، فلولا بعثت إلينا رسولاً ينبهنا على النظر في أدلة العقل».

ومن هنا نسجل كلمة شيخنا العلامة الشيخ أبو شهبة في «الإسرائيليات والموضوعات» فقال رحمه الله:

إن تفسير «الكَشَّاف» من خير كتب التفسير العلميَّة وأجلها، ولولا نزعته الاعتزالية في بعض الآيات القرآنية لما تناوله المعترضون بالنقد، ولما شَنَأَهُ بعض الناس، وبحسب هذا الكتاب فضلاً ومنزلة: أن كُلَّ من جاءَ بعد الزمخشري عَالَةٌ عليه، فيما يذكره فيه من أَسرار الإعجاز، والغوص على المعاني البلاغية الدقيقة.

ولبراعته في الكلام، وتمكنه من فنون القول، وبُعْدِ غوره: يَدُسُّ بَعْضَ آرائه في أَثناءِ تفسيره، وتَرُوجُ على خَلْقٍ كثيرٍ من أَهل السنة؛ ولذا قال البلقيني: استخرجْتُ من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش من قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[2] قال: أَيُّ فوز أَعظم من دخول الجنة، أَشار به إلى عدم الرُّؤية[3]، وقال ابن تيمية أثناءَ الكلام عن تفاسير المعتزلة: ومن هؤلاءِ من يكون حسن العبارة، يَدُسُّ الْبِدَعَ في كلامه، وأَكثر الناس لا يعلمون؛ كصاحب الكشاف ونحوه، حتى إنه يَرُوجُ على خلق كثير من أَهل السنة، كثيرٌ مِنْ تفاسيرهم الباطلة[4].

وَمِنْ مُمَيِّزَاتِ هَذَا التَّفْسِيرِ

١ ـ خلوه من الحشو والتطويل.

٢ ـ سلامته من القصص الإسرائيلي غالباً، وإذا ذكر بعضه فإنه قد يفنِّدُهُ، كما فعل في قصَّة داود وسليمان، ولكن وجدت فيه بعض الموضوعات التي لا تدرك بالعقل، وإنما

---

(١) ينظر: الكشاف.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.
(٣) الإتقان ج ٢ ص ١٩٠.
(٤) مقدمة في أصول التفسير ص ٣٨.

يعملها أئمة الحديث ونقاده. وذلك مثل: الحديثِ الطويلِ المرويِّ في فضائل السور، سورة سورة، وكذلك ما روي: في قصّة السيدة زينب بنت جحش، وحاول تبريره، وقد يذكر بعض الإسرائيليات، ولا يفنّدها، مثل ما ذكره: في قصّة يَأجوج ومَأجوج، بل ذكر هنا حديثاً موضوعاً على النبيّ ـ ﷺ ـ[1] وسَأَتَنَاوَلُ ذلك بالتفصيل فيما يَأْتِي، إن شاءَ الله تعالى.

٣ ـ اعتماد في بيان المعاني على لغة العرب وأَساليبهم في الْخِطَابِ.

٤ ـ عِنَايَتُهُ الفائِقَةُ بالإبانة عن أَسرار الإعجاز القرآنيِّ بطريقة فنيَّة قائمة على الذوق الأَدبي.

٥ ـ اتباعه طريقة السُّؤَالِ: (إنْ قُلْتَ ـ بفتح التاء)، ويقول في الجواب: (قُلْتُ: بضم التاء) وهي طريقة مِنْ طُرُقِ التشويقَ، في التعليم وترسيخِ المعاني في النفس.

الانْتِصَافُ

وقد قَيَّضَ الله لهذا الكتاب مَنْ نَبَّهَ إِلَىٰ ما فيه من اعتزالياتٍ، وبين ما فيه من انحراف، وميل باللفظ القرآني إلى مذهب أَهل الاعتزال، وهو: الإمام أَحمد بن محمد، المعروف بابن المنير. عالم الإسكندرية وقاضيها، وخطيبها، فأَلف كتابه: «الانتصاف»، وهو يدل على علو كعب هذا الإمام في العلوم الشرعية، والبلاغية، وأُصول الدين، وأُصول الفقه وبهذا الكتاب النفيس، يمكن للقارىء لتفسير الكشاف أَن يقرأه مع الأَمن عليه أَن يزيغ، أَو يضل في متاهات الاعتزال.

تَخْرِيجُ أَحَادِيثِ الكَشَّافِ

وقد تنبه إلى ما في تفسير الكشاف من الروايات الضعيفة، والموضوعة، بعض المحدثين، فقام بإكمال هذا النقص خير قيام، وسد هذه الثغرة التي دخل منها على القراءِ ضرر كثير، فقد أَلف الإمام الحافظ الفقيه: عبد الله بن يوسف الزيلعي المتوفى سنة ٧٧٢هـ رسالة في تخريج أَحاديث الكشاف، وما فيه من قصص وآثار، بين فيها الصحيح، من الحسن، من الضعيف، من الموضوع، وقد لخصها الإمام الحافظ ـ الفقيه. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المتوفى سنة ٨٥٢هـ، في رسالة سماها: «الكاف الشاف من

---

(١) تفسير الكشاف في سورة الكهف عند تفسير قوله تعالى: ﴿قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض﴾.

تخريج أحاديث الكشاف»، وقد طبعت مع الكشاف في بعض الطبعات، فجزاهما الله خير الجزاء.

حملة أهل السنة على الزمخشري:

إن دسائس الاعتزال التي حشا بها الزمخشري كشافه دفعت بعض أهل السنة إلى القيام بواجب الدفاع عن الاعتقاد الصحيح؛ وردًا للحق إلى نصابه، وتبييناً لزغل معتقد هذا الرجل.

وكان من أشد الناس ردًا على الزمخشري أحمد بن المنير الإسكندري المالكي، الذي صنف كتاب «الانتصاف من الكشاف»، وقد أحنقه ما صنع الزمخشري بآيات الله من دسائس الاعتزال، انظر إليه يقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] وقد قال الزمخشري: «فمنكم آت بالكفر وفاعل له، ومنكم آت بالإيمان..». «لقد ركب عمياء، وخبط خبط عشواء، واقتحم وعراً: السالك فيه هالك، والغابر فيه عاثر، وإنما ينصب إلى مهاوي الأراك، ويحوم حول مراتع الإشراك، ويبحث: لكن عن حتفه بظِلْفه، ويتحذق، وما هو إلا بمتشدق، ويتحقق، وما هو إلا يتفسق...»[1].

وكثيراً ما نرى الألفاظ الشديدة من ابن المنير يصوبها تجاه الزمخشري، لسوء نعاله، وهضمه لجماعات أهل السنة؛ وفي موضع من التفسير يقول ابن المنير: «فانظر إليه كيف أشحن قلبه بغضاً لأهل السنة وشقاقاً، وكيف ملأ الأرض من هذه النزعات نفاقاً، فالحمد لله الذي أهّل عبده الفقير إلى التورك عليه؛ لأنّه آخذ من أهل البدعة بثأر أهل السنة، فأصمي أفئدتهم من قواطع البراهين بمقومات الأسنة»[2].

حملة ابن القيم:

ثار ابن القيم على الزمخشري من أجل تفسيره الاعتزالي، فنراه يذكر ما فسر به الزمخشري قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، ثم يقول: «فهذا منه شنشنة نعرفها من قدري ناف للمشيئة العامة، مبعد للنجعة في جعل كلام الله معتزليًا قدريًا»[3].

---

(١) ينظر: الكشاف.

(٢) ينظر: الكشاف.

(٣) ينظر: إعلام الموقعين ١/ ٢٠٢.

حملة ابن السبكي:

وفي مقالة يقول التاج السبكي: «واعلم أن الكشاف كتاب عظيم في بابه، ومصنفه إمام في فنه، إلا أنه رجل مبتدع متجاهر ببدعته، يضع من قدر النبوة كثيراً، ويسيء أدبه على أهل السنة والجماعة، والواجب كشط ما في الكشاف من ذلك كله، ولقد كان الشيخ الإمام ـ يعني والده التقي السبكي ـ يُقْرئه فإذا انتهى إلى كلامه في قوله تعالى في سورة التكوير: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ [آية: ١٩] أعرض عنه صفحاً، وكتب ورقة حسبة سماها: «سبب الانكفاف عن إقراء الكشاف»، وكلامه في سورة التحريم وغير ذلك[١] من الأماكن التي أساء أدبه فيها على خير خلق الله تعالى؛ سيدنا رسول الله ﷺ، فأعرضت عن إقراء كتابه حياءً من النبي ﷺ، مع ما في كتابه من الفوائد والنكت البديعة»[٢].

حملة أبي حيان:

صنف أبو حيان الأندلسي تفسيره «البحر المحيط»، وقد تعقب فيه الزمخشري في كثير من آرائه النحوية مما دفعه ـ ذات مرة ـ إلى أن يقول عنه: «وهذا الرجل كثير التبجح بكتاب سيبويه، وكم من نص في كتاب سيبويه عمي بصره وبصيرته عنه، حتى إن الإمام أبا الحجاج يوسف بن معزوز صنف كتاباً يذكر فيه ما غلط فيه الزمخشري وما جهله من نصوص كتاب سيبويه»[٣].

وقال أبو حيان: «...وقد نظمت قصيداً في شغل الإنسان نفسه بكتاب الله، واستطردت إلى مدح كتاب الزمخشري، فذكرت أشياء من محاسنه، ثم نبهت على ما فيه مما يجب تجنبه، ورأيت إثبات ذلك هنا لينتفع بذلك من يقف على كتابي هذا، ويتنبه على ما تضمنه من القبائح، فقلت بعد ذكر ما مدحته به: [من الطويل]

وَلٰكِنَّهُ فِيهِ مَجَالٌ لِنَاقِدٍ ... وَزَلاَّتُ سُوءٍ قَدْ أَخَذْنَ الْمَخَانِقَا
فَيُثْبِتُ مَوْضُوعَ الأَحَادِيثِ جَاهِلاً ... وَيَعْزُو إِلَى الْمَعْصُومِ مَا لَيْسَ لاَئِقَا
وَيَشْتُمُ أَعْلاَمَ الأَئِمَّةِ ضَلَّةً ... وَلاَ سِيَّمَا إِنْ أَوْلَجُوهُ الْمَضَايِقَا
وَيُسْهِبُ فِي الْمَعْنَى الْوَجِيزِ دَلاَلَةً ... بِتَكْثِيرِ أَلْفَاظٍ تُسَمَّى الشَّقَاشِقَا
يَقُولُ فِيهَا اللَّهَ مَا لَيْسَ قَائِلاً ... وَكَانَ مُحِبًّا فِي الْخَطَابَةِ وَامِقَا

---

(١) وذلك كما في تفسيره قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة: ٤٣] يقول: كناية عن الجناية، لأن العفو رادف لها، ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت. !!!

(٢) ينظر: معيد النعم ومبيد النقم.

(٣) ينظر: البحر المحيط ـ بتحقيقنا ـ ٨/ ٢٩٨.

وَيُخْطِيءُ فِي تَزْكِيَتِهِ لِكَلاَمِهِ ... فَلَيْسَ لِمَا قَدْ رَكَّبُوهُ مُوَافِقَا
وَيَنْسُبُ إِبْدَاءَ الْمَعَانِي لِنَفْسِهِ ... لِيُوهِمَ أَغْمَاراً وَإِنْ كَانَ سَارِقَا
وَيُخْطِيءُ فِي فَهْمِ الْقُرَانِ لأَنَّهُ ... يُجَوِّزُ إِعْرَاباً أَبَىٰ أَنْ يُطَابِقَا
وَكَمْ بَيْنَ مَنْ يُؤْتَى الْبَيَانَ سَلِيقَةً ... وَآخَرَ عَانَاهُ فَمَا هُوَ لاَحِقَا
وَيَحْتَالُ لِلأَلْفَاظِ حَتَّىٰ يُدِيرَهَا ... لِمَذْهَبِ سُوءٍ فِيهِ أَصْبَحَ مَارِقَا
فَيَا خُسْرَهُ شَيْخٌ تَخَرَّقَ صِيتُهُ ... مَغَارِبَ تَخْرِيقِ الصَّبَا وَمَشَارِقَا
لَئِنْ لَمْ تَدَارَكْهُ مِنَ اللَّهِ رَحْمَةٌ ... لَسَوْفَ يُرَى لِلْكَافِرِينَ مُرَافِقَا

حملة ابن خلدون:

عقد ابن خلدون في مقدمته فصلاً في علوم القرآن من التفسير والقراءات وذكر فيه كلاماً في تفسير كتاب الله، وكان من قوله: «ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض في آي القرآن من طرق البلاغة، فصار ذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه، وتحذير للجمهور من مكامنه...»[1].

حملة الشيخ حيدر الهروي:

وكان للشيخ حيدر الهروي نصيب من التعليق على كشاف الزمخشري، فبين قيمة الكشاف وما له، ثم ذكر ما يعكر عليه من أنه بسبب: «إخطائه سلوك الطرق الأدبية، وإغفاله عن إجمال أرباب الكمال، أصابته عين الكلالة، فالتزم في كتابه أموراً أذهبت رونقه وماءه، وأبطلت منظره ورواءه، فتكدرت مشاربه الصافية، وتضيقت موارده الضافية، وتزلزلت رتبه العالية.

منها: أنه كلَّما شَرَعَ في تفسير آية من الآي القرآنية مضمونها لا يساعِدُ هواه، ومدلولها لا يطاوع مشتهاه، صَرَفَهَا عن ظاهرها بتكلُّفات باردة، وتعسُّفات جامدة، وصرف الآية - بلا نكتة بلاغيَّة لغير ضرورة - عن الظاهر، وفيه تحريفٌ لكلام اللَّهِ سبحانه وتعالَىٰ، وليته يكتفي بقدر الضرورة، بل يبالغ في الإطناب والتكثير؛ لئلاَّ يوهم بالعَجْز والتقصير، فتراه مشحوناً بالاعتزالات الظاهرة التي تتبادَرُ إلى الأفهام، والخفيَّة التي لا تتسارَقُ إليها الأوهام، بل لا يهتدِي إلَىٰ حبائله إلا وُرَّادٌ بعد وُرَّادٍ من الأذكياء الحُذَّاق، ولا ينتبه لمكائِدِهِ

(١) ينظر: مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٨.

إلاَّ واحدٌ مِنْ فضلاء الآفاق. وهذه آفة عظيمَةٌ، ومصيبةٌ جسيمة.

ومنها: أنه يَطْعَنُ في أولياء الله المرتَضَيْنَ من عباده، ويغفل عن هذا الصنيع لفرط عناده، وَبِئْسَ ما قال الرازيُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[1]: خاض صاحب «الكشَّاف» في هذا المقام في الطعن في أولياء الله تعالَىٰ، وكتب فيها ما لا يليقُ بعاقلٍ أن يكتب مثله في كتب الفُحْش، فهبْ أنه اجترأ على الطَّعْنِ في أولياء الله تعالى، فكيف اجتراؤه على كَتْبِهِ ذلك الكلام الفاحِشَ في تفسير كلامِ اللَّهِ المجيد.

ومنها: أنه أورد فيه أبياتاً كثيرة، وأمثالاً غزيرةً بَنَىٰ على الهَزْلِ والفُكَاهَة أساسَهَا، وأورد على المزاح البَارِدِ نِبْرَاسَهَا، وهذا أمر من الشرع والعَقْل بعيد، لا سيما عند أهل العدل والتوحيد.

ومنها: أنه يذكر أهل السنة والجماعة ـ وهم الفرقة الناجية ـ بعبارات فاحشة، فتارة يُعَبِّرُ عنهم بالمجبرة، وتارة ينسبهم على سبيل التعريضِ إلى الكُفْر والإلحاد، وهذه وظيفةُ السُّفَهَاءِ الشُّطَّار، لا طريقة العلماء الأبرار»[2].

حملة الجلال السيوطي:

ومن الكتب التي صنفها السيوطي كتاب «التحبير في علم التفسير»، ذكر فيه من يجوز لمثله أن يقحم نفسه في كتاب الله يفسره ويستخرج درره، كما ذكر من يقبل منه ومن لا، فقال: «... وممن لا يقبل تفسيره: المبتدع، خصوصاً الزمخشري في «كشافه»؛ فقد أكثر فيه من إخراج الآيات عن وجهها إلى معتقده الفاسد، بحيث يسرق الإنسان من حيث لا يشعر، وأساء فيه الأدب على سيد المرسلين ﷺ في مواضع عديدة فضلاً عن الصحابة وأهل السنة. وقد أحسن الذهبي إذ ذكره في «الميزان» وقال: كن حذراً من كشافه.

وألف الشيخ تقي الدين السبكي كتاباً سماه «الانكفاف عن إقراء الكشاف» ذكر فيه أنه عقد التوبة من إقرائه وتاب إلى الله، فلا يقرأه ولا ينظر فيه أبداً؛ لما حواه من الإساءة المذكورة.

قال[3]: وقد استشارني بعض أهل المدينة النبوية أن يشتري منه نسخة ويحملها إلى المدينة، فأشرت عليه بألا يفعل، حياءً من النبي ﷺ أن ينقل إلى بلد هو فيها كتاب فيه ما

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

(٢) ينظر: كشف الظنون ص (١٤٨٣).

(٣) يعني تقي الدين السبكي.

يتعلق بجنابه ﷺ. على أنه آية في بيان أنواع البلاغة والإعجاز لولا ما شانه مما ذكرناه»[1].

قيمة الكشاف البلاغية:

لم يكن كشاف الزمخشري سوءاً كله، بل حوى كثيراً من اللمحات الفنية والبلاغية التي تجلي فصاحة كتاب الله وبلاغته وحسن رصفه، وجمال وصفه؛ فإن الذين نقموا على الزمخشري سوء فعاله، قدموا ذكر محاسنه، فجمع بين الخير والشر، وخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً. [من الطويل]

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا ... كَفَى الْمَرْءَ نُبْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهْ

وكأن الزمخشري أحسن قيمة عمله وصنعة يده، فمن ثم رفع صوته قائلاً: [من البسيط]

إِنَّ التَّفَاسِيرَ فِي الدُّنْيَا بَلاَ عَدَدٍ ... وَلَيْسَ فِيهَا لَعَمْرِي مِثْلُ كَشَّافِي
إِنْ كُنْتَ تَبْغِي الْهُدَىٰ فَالْزَمْ قِرَاءَتَهُ ... فَالْجَهْلُ كَالدَّاءِ وَالْكَشَّافُ كَالشَّافِي

ولعل من الإنصاف ألا نعتبر تزكية المرء عمله؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، فمن ثم ننقل بعض كلمات مما قيلت في قيمة الكشاف البلاغية.

قولة أبي القاسم بن بشكوال:

نقل أبو حيان في «البحر المحيط» موازنة للحافظ ابن بشكوال، عقدها بين تفسير ابن عطية الأندلسي، وبين تفسير الزمخشري، فقال: «وكتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص، وكتاب الزمخشري ألخص وأغوص، إلا أن الزمخشري قائل بالطفرة، ومقتصر من الذؤابة على الوفرة، فربما سنح له آبي المقادة فأعجزه اعتياصه، ولم يمكنه لتأنيه اقتناصه، فتركه عقلاً لمن يصطاده، وغفلاً لمن يرتداه. وربما ناقض هذا المنزع، فثنى العنان إلى الواضح والسهل اللائح، وأجال فيه كلاماً، ورمى نحو غرضه سهاماً. هذا مع ما في كتابه من نصره مذهبه، وتقحم مرتكبه، وتجشم حمل كتاب الله عز وجل عليه، ونسبة ذلك إليه، فمغتفر إساءته لإحسانه، ومصفوح عن سقطه في بعض؛ لإصابته في أكثر بُنيانه».

والكشاف يعد أول كتاب في التفسير كشف لنا على سر بلاغة القرآن، وأبان لنا عن وجوه إعجازه، وأوضح لنا عن دقة المعنى الذي يفهم من التركيب اللفظي. كل هذا في قالب أدبي رائع، وصوغ إنشائي بديع، لا يتفق لغير الزمخشري إمام اللغة وسلطان المفسرين؛ يقول

---

(١) ينظر: التحبير في علم التفسير ص ٣٣٠ ـ ٣٣١.

الشيخ حيدر الهروي:

(. . . وبعد، فإن كتاب الكشاف كتاب عليُّ القدر رفيع الشأن، لم ير مثله في تصانيف الأولين، ولم يرد شبيهه في تآليف الآخرين. اتفقت على متانة تراكيبه الرشيقة كلمة المهرة المتقنين، واجتمعت على محاسن أساليبه الأنيقة ألسنة الكملة المفلقين. ما قصر في قوانين التفسير وتهذيب براهينه، وتمهيد قواعده وتشييد معاقده. وكل كتاب بعده في التفسير، ولو فرض أنه لا يخلو عن النقير والقطمير. إذا قيس به لا تكون له تلك الطلاوة، ولا يوجد فيه شيء من تلك الحلاوة، على أن مؤلفه يقتفي أثره، ويسأله خبره. وقلما غير تركيباً من تراكيبه إلا وقع في الخطأ والخطل، وسقط من مزالق الخبط والزلل، ومع ذلك كله إذا فتشت عن حقيقة الخبر، فلا عين منه ولا أثر، ولذلك قد تداولته أيدي النظار، فاشتهر في الأقطار كالشمس في وسط النهار»[1].

هذا، وإن نيل الكشاف هذا الإعجاب والتقدير حتى من خصومه، لدليل واضح على قيمة هذا السفر وعلو قدره.

موقف الزمخشري من الإسرائيليات:

من استقرأ صنيع الزمخشري في كشافه يجد أنه ذكر الإسرائيليات في بعض الآيات، إلا أنه كان يذكرها إما بصيغة «روي» المشعرة بالتمريض، أو بقوله: «والله علم بصحته»، أو يقول: «ولقد أبى العلماء المتقنون قبوله وقالوا: هذا من أباطيل اليهود».

ومن أمثلة ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ [النمل: ٣٥]، ولقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨] وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [ص: ٢١]، في كل ذلك يروي روايات إسرائيلية، ثم يعقب عليها بما يشير إلى ضعفها أو عدم الأخذ بها فيما لا يليق بالأنبياء.

موقفه من المسائل الفقهية:

كان الزمخشري حنفي المذهب، إلا أنه معتدل لا يتعصب لمذهبه، فتارة يرجح مذهبه إن ظهر له ذلك، وتارة يرجح مذهب غيره، ومن إنصافه ما يظهر عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧] قال: والذي بيده عقدة

---

(١) ينظر: كشف الظنون (١٤٨٣).

النكاح ـ الولي، يعني إلا أن تعفو المطلقات عن أزواجهن فلا يطالبنهم بنصف المهر، وتقول المرأة: ما رآني، ولا خدمته، ولا استمتع بي، فكيف آخذ منه شيئاً، أو يعفو الولي الذي يلي عقد نكاحهن، وهو مذهب الشافعي ـ وقيل: هو الزوج، وعفوه أن يسوق إليها المهر كاملاً، وهو مذهب أبي حنيفة، والأول ظاهر الصحة»[1].

وبعد فإن أول دليل على قيمة الكشاف أنه قد اعتنى به أناس كثيرون، فمن مختصرٍ له، ومن محشٍّ عليه، ومن منتصر له، ومن محاكم بينه وبين غيره، وقد ذكر صاحب «كشف الظنون» عدداً جمًّا منهم، أذكر هنا كلامه، يقول:

فَمِمَّنْ كتب عليه الإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندريّ المالكي كتابه «الانتصاف» بيَّن فيه ما تضمنه من الاعتزال، وناقشه في أعاريب وأحسن فيها الجدال، وتوفي (سنة ٦٨٣ ثلاث وثمانين وستمائة). وتلاه: الإمام علم الدين عبد الكريم بن علي العراقي في كتاب «الإنصاف» جعله حكماً بين «الكشاف» و«الانتصاف»، وتوفي (سنة ٧٠٤ أربع وسبعمائة)، ولخصهما: الإمام جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام في مختصر لطيف مع يسير زيادة، وتوفي (سنة ٧٦٢ اثنتين وستين وسبعمائة)، قال: اختصرْتُ فيه «الانتصاف من الكشاف» وحذفت منه ما وقعت الإطالة به من نقل كلام الزمخشريُّ على وجهه من غير كلام عليه؛ إعجاباً به واستحساناً له، وما قابل به الزمخشري في سَبِّهِ أهل السنة بمثلها؛ مقتصراً على العقيدة الصحيحة، وما يتعلق بالآية منها مِنْ دليلٍ، وحمل على تأويل، فلم أدع شيئاً من معاني الكتاب المذكور؛ فما وافق منه الصواب أبقيته بحاله، وما خالف ذلك بينت وجه ضعفه وإخلاله، والله الموفق، فابتدأ بـ«قال محمود» و«قال أحمد» إلخ؛ كما في «الانتصاف»، وأكثر الإمام أبو حيان في «بَحْرِهِ» من مناقشته في الإعراب، وتلاه: تلميذه الشهاب أحمد بن يوسف الحلبي المشهور بالسمين، والبُرْهَانُ إبراهيم بن محمد السفاقسيُّ في إعرابيهما، ولخص الشيخ تَاجُ الدين أحمد بن مكتوم مناقشاتِ شيخه أبي حيان في تأليفٍ مفرَدٍ، سماه: «الدر اللقيط من البحر المحيط» وتوفي (سنة ٧٤٩ تسع وأربعين وسبعمائة)، وممن كتب عليه حاشيةً: العلامة قُطْب الدين محمود بن مسعود الشيرازيُّ في مجلَّدَيْنِ لطيفَيْنِ، وتوفي (سنة ٧١٠ عشر وسبعمائة)، والعلاَّمة فخر الدين أحمد بن حسن الجار بردى المتوفَّى (سنة ٧٤٦ ست وأربعين وسبعمائة)، والعَلاَّمة شرف الدين الحسن بن محمد الطِّيبيُّ، وهي أجل حواشيه في ستِّ مجلَّدات ضخمات، قال: «رَأَيْتُ النبيَّ ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ قبيل الشروع؛ أنه ناولني قدحاً من اللبن، وأشار إلي فأصبت منه، ثم ناولته ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأصاب منه، أقول: سمَّاها

---

(١) ينظر: الكشاف.

«فتوح الغيب، في الكَشْف عن قناع الريب»، وتوفي (سنة ٧٤٣ ثلاث وأربعين وسبعمائة)، والعلامة أكمل الدين محمد بن محمود البابرتي، وهو شَرْحٌ بـ«قَالَ»، رأَيْتُ منه مجلداً على «الفاتحة»، وقطعة من «البقرة»، ولا أدري أكملها أم لا، أقول: وصل فيها إلى تمام الزهراوين، أوله: «الحَمْدُ لِلّهِ عَلاَّمِ الغيوبِ، كَشَّاف الكروب...» إلخ، (وتوفي سنة ٧٨٦ ست وثمانين وسبعمائة)، والعلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، وهي ملخَّصة من حاشية الطيبيْ مع زيادة تعقيد في العبارة ولم يتمَّها، أقول: وصل فيها إلى سورة «الفتح»، وفرغ منها (سنة ٧٨٩ تسع وثمانين وسبعمائة)، (وتوفي أول سنة ٧٩٢)، والعلامة قطب الدين محمد بن محمد التحتاني الرازي، (توفي سنة ٧٦٦)، وعليه اعتراضات أوردها جمال الدين محمد بن محمد الأقسرايي، وعليه محاكمات لعبد الكريم بن عبد الجبار، أولها: «الحمدُ للّهِ الذي أخرج العباد من ظلمة العدم إلى نور الوجود...» إلخ؛ ذكر فيها أن شرح الكشاف للعلاَّمة قطب الدين الرازيّ كتابٌ جليلُ الشانِ، لكن المولى جمال الدين محمد بن محمد الأقسرايي اَعْتَرَضَ عليه اَعتراضاتٍ، فكتبت الأجوبة، وسميتها بـ«المحاكمات»، وأجاب عن المحاكمات ابنُ سماونة ذكره عرب زاده في «حاشية الشقائق»، أما شرح الطيبي فلم يألُ جهداً في إيراد مباديه المنتشرة من تبيين وجوه القراءات وتصحيح الأحاديث والروايات، وتحقيق لغاته، وتدقيق نكاته، وبذل مجهوده في تقرير مسائله، ومع ذلك: ففيه شيئان؛ أحدهما: ليس من الأفعال الاختيارية، وهو أنَّ هذا الكتابَ كتابٌ متينٌ وحصنٌ حصينٌ لا يكمل علمه بمجرَّد العثور على العلوم الظاهرة، بل له شرائطُ بعضُهَا ما ذكره مؤلِّفه، حيث قال قد رَجَعَ زماناً ورُجِعَ إليه، ورَدَّ ورُدَّ عليه، مع ذهنٍ وَقَّادٍ، وذكر أمر لا يمكن تحصيله إلا بالكدِّ والجِدِّ، وثانيهما: أنه كان مولعاً بكثرة إيراد النكات البيانية، فصار شرحه كبير الحَجْم في غير المقصود، واَختلاط الموجود بالمفقود، وأما شرح الرازيّ: فلأنه غير تامٍّ، وبتقديره هو خلاصة الطيبيْ لم يزدْ عليه سوى التنقيحِ في كل بابٍ، واعتراضاتٍ تنادِي بأن موردها ليس من رجال هذا الكتاب، وأما شرح الفاضل الجيلوهيْ على أنه وافٍ بمقاصده، فإن فيه ثلاثة أشياء؛ أحدها: أنه لم يشرحه مرتباً كما يكون حال الشروح مع المتون، وثانيها: قد بذل جهده فيما يتعلق بالرواية وقوانينها؛ لكنه كثيراً ما يزلق في المضايق، ويدحض في التعقلات، ولا أدري أهو لقصور استعداده الفطريّ أم لعدم تمرُّنه في المعقولات، وثالثها: أنه بَالَغَ في اختصار عبارته والاقتصارِ على إشارته؛ فخرج من حيز الانتفاع إلى حد الإلغاز والإخلال، فلا يحصل بمطالعته سِوَى التخيُّل الفاسد مع تَعَبِ الكلال، وأما شرح المحقِّق النحرير ـ أي: السعد ـ فما له من نظير؛ لاشتماله على التحقيق والتدقيق، ولطائف التوفيق والتلفيق، لكنه فوت الفرصة، واشتغل به في آخر عمره، فأتاه بريد الأجل، قبل الفراغ من العمل، وقد تحقَّقْتُ

منه أنَّ هذا الكتاب على تعاقب الشهور والأعوام مهرة لم تُرْكَبْ، ودرة لم تثقب... إلخ.
وكتب العلامة السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني حاشيةً ولا أدري إلى أين وصل، أقول: وقف في أواسط «سورة البقرة»، وتوفي (سنة ٨١٦ ست عشرة وثمانمائة)، وكتب المولى محيي الدين محمد بن الخطيب حاشيةً على حاشية السيد، وتوفي (سنة ٩٠١ إحدى وتسعمائة)، أولها «إن أحَقّ ما يوشح به صدر الكلام...» إلخ، وأهداها إلى السلطان بايزيد، والمولى عبد الكريم ـ أيضاً ـ، والمولى علاء الدين علي الطوسي، المتوفى بسمرقند (سنة ٨٨٧ سبع وثمانين وثمانمائة)، وعلق المولى برهان الدين حيدر بن محمد الهروي تلميذ السعد حاشية على حاشية سعد الدين، أجاب فيها عن اعتراضات السيد، وتوفي (سنة ٨٣٠ ثلاثين وثمانمائة)، والمولى علاء الدين علي بن محمد المعروف بـ«قوشجي» علق على أوائل حاشية السعد، وتوفي (سنة ٨٧٩ تسع وسبعين وثمانمائة). (وللمولى شيخ الإسلام بهراة يحيى الهروي المعروف بـ«الحفيد» حاشيةٌ على حاشية جَدِّهِ سعد الدين، وأجاب ـ أيضاً ـ عن اعتراضات السيد). وعلى حاشية السيد حاشيةٌ للمولى حسن چلبي ابن محمد شاه الفناري المتوفَّى (سنة ٨٨٦ ست وثمانين وثمانمائة)، وشيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني، وهي على أسلوب غير أساليب المذكورين، وإنما ذكرمنها (من كلامهم) اليسير، أقول: وهي ثلاث مجلدات، سماها: «الكشاف على الكشاف»؛ كما سَبَقَ، وتوفي (سنة ٨٠٥ خمس وثمانمائة)، والشيخ ولي الدين أبو زرعة أحمد ابن الحافظ الكبير عبد الرحيم العِرَاقِيّ في مجلَّدين، لَخَّصَ فيها كلام ابن المنير والعلم العراقي وأبي حَيَّان وأجوبة (السمين) الحلبيّ والسفاقسيّ، مع زيادة تخريج أحاديثه. انتهى كلام السيوطيّ مع حذف وإلحاق.

ثم أقول: وتوفي أبو زرعة (سنة ٨٢٠ عشرين وثمانمائة (٨٢٦)، وممن كتب ـ أيضاً ـ غير ما ذكره السيوطي: الإمام العلامة عمر بن عبد الرحمن الفارسي القزويني (حاشية) في مجلَّد سماها: «الكشف»، (وتوفي سنة ٧٤٥ خمس وأربعين وسبعمائة)، أولها: «الحمد لله الذي أنار الأعيان بنورِ الوجود...» إلخ، ذكر فيها أنه أشار إلى تأليفها مَنْ أمرُهُ مطاعٌ، فشرع وكتب فيها ما تلقفه من الأئمة الماضين أو استنبطه بميامن أنوارهم، وهذا الأخير ميزها بـ«أَقُول»، والعلامة عماد الدين يحيى بن قاسم العلوي المعروف بـ«الفاضل اليمني» (كتب حاشية» في مجلَّدين سماها دُرَرَ الأصداف من حواشي الكشاف [درر الأصداف في حل عقد الكشاف]، فرغ من تأليفها في صفر (سنة ٧٣٨ ثمان وثلاثين وسبعمائة) وتوفي (سنة ٧٥٠ خمسين وسبعمائة) (وله حاشية أخرى ـ اسمها تحفة الأشراف في كشف غوامض الكشاف ـ ألفها بعد فراغه من حاشيته المسماة بدرر الأصداف في حل عقد الكشاف، أولها: «الحمد لله الذي أنزل قرآنه العظيم...» إلخ، ذكر فيها أنه لما وَقَفَ على

حاشية الطيبيّ، وجد مذكوراً فيها ما ذكره صاحبُ «الانتصاف» و«الإنصاف» وغيرهما، أراد أن يجمع بين «حاشية الطيبي» و«دُرَرِ الأصداف»، وسماها «تحفة الأشراف في كشف غوامض الكشاف». والشيخ علاء الدين علي بن محمد الشاهرودي الشهير بـ«مصنفك» فرغ منها (سنة ٨٥٦ ست وخمسين وثمانمائة)، وتوفي (سنة ٨٧١ إحدى وسبعين وثمانمائة)، وخير الدين خضر بن عمر العطوفي المتوفى (سنة ٩٤٨ ثمان وأربعين وتسعمائة)، ويوسف بن حسن التبريزي المتوفى (سنة ٨٠٤ أربع وثمانمائة)، وشرح خطبته الشيخ الإمام مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزابادي الشيرازي المتوفى (سنة ٨١٧ سبع عشرة وثمانمائة)، وسماه: «نغبة الخَشَّاف، لِحَلِّ خطبة الكشاف»، ثم كتب ثانياً، وسماه «نغبة الرشاف، من خطبة الكشاف»، وذكر أن الأول أصيب بكفة الإتلاف عند مغيرة الإعجاف، وأعاد العمل (سنة ٧٦٨ ثمان وستين وسبعمائة)، وعلق على أوائله شيخ الإسلام سيف الدين أحمد بن محمد الهروي المعروف بـ«حميد التفتازاني» فبلغ إلى أواسط «سورة البقرة»، وتوفي (سنة ٩٠٦ ست وتسعمائة)، والمولى أبو السعود بن محمد العمادي على سورة الفتح، حين قرىء عليه في سفر الكفار، سماه: «مَعَاقِدَ الطراف، في أول تفسير سورة الفتح من الكشاف» وتوفي (سنة ٩٨٢ اثنتين وثمانين وتسعمائة)، والمولى صنع الله بن جعفر المفتي على أوائله، وتوفي (سنة ١٠٢١ إحدى وعشرين وألف)، وممن علق على بعض مواضعه ـ أيضاً ـ المولى كمال الدين إسماعيل القرماني المعروف بـ«قرة كمال» من علماء الدولة الفاتحية. والعلامة شمس الدين أحمد بن سليمان المعروف بـ«ابن كمال باشا» المفتي المتوفّىٰ (سنة ٩٤٠ أربعين وتسعمائة)، وهو من أحسن تأليفاته على ما ذكره عرب زاده في «حاشية الشقائق» أكثرها على السيد. والمولى مهدي الشيرازي المتوفى (سنة ٩٥٦ ست وخمسين وتسعمائة). وأما المختصرون فكثيرون منهم الشيخ محمدبن علي الأنصاريّ أزال عنه الاعتزال، وتوفي (سنة ٦٦٢ اثنتين وستين وستمائة). والعَلاَّمة قطب الدين محمد بن مسعود بن محمود بن أبي الفتح السيرافي الفالي الشَّقَّار «لعله قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي المذكور قبل هذا» لخصَّه، وسماه تقريبَ التفسير، أتمه في التاسع من شوالٍ (سنة ٦٩٨ ثمان وتسعين وستمائه) ببلدة «شيراز» أوله: «الحمد لله الذي جعل كِتَابَهُ الكريم مفتاحاً للسرور...» إلخ، أزال اعتزاله وبعض إطنابه، فَهذَّب ونقح وضم إلى مواضع الانغلاق حَلاً وبياناً، وهو كتاب صغير الحجم وجيزُ النظم، مشتمل على محض الأهمّ من «الكشاف» مع زيادات شريفة، وعليه حاشية لطيفةٌ مفيدةٌ مسمَّاة بـ«توضيح مشكلات التقريب» لعلي بن عمر الأرزنجاني، كتبها حين درسه، وبلغ إلى الثلث الثاني، أولها: «الحمد لله الذي حارت الأفكار في مبادي أنوار كتابه...» إلخ. والمولى عبد الأوّل بن حسين الشهير بـ«أُمّ ولد» المتوفىٰ (سنة ٩٥٠ خمسين وتسعمائة).

والمولى محب الدين محمد بن أحمد المدعوّ بمولانا زاده الحنفي (المتوفّى سنة ٨٥٩ تسع وخمسين وثمانمائة). وسيد المختصرات منه كتاب أنوار التنزيل للقاضي العَلاّمة ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي، لخَصَّه وأجاد، وأزال عنه الاعتزال، وحَرَّر وٱستدرك وٱشْتَهَرَ ٱشتهار الشمس في وَسَط النهار، فعكف عليه العاكفون، كما سبق ذكره في الألف، وكانت وفاته (سنة ٦٩٢ اثنتين وتسعين وستمائة). وممن خرج أحاديثه الإمام المحدّث جمال الدين عبد الله بن يوسف الزيلعي الحنفي المتوفى (سنة ٧٦٢ اثنتين وستين وسبعمائة). ولخص كتابه الحافظ الكبير شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر في كتاب سَمَّاه: «الكَاف الشاف، في تحرير أحاديث الكشاف» في مجلد، واستدركَ عليه في مجلد آخر، وتوفي (سنة ٨٥٢ اثنتين وخمسين وثمانمائة)، قال ابن حجر: ٱسْتَوْعَبَ ما فيه من الأحاديث المرفوعة، فأكثر من تبيين طرقها، وتسمية مخرجيها، عَلَىٰ نمط ما في أحاديث «الهداية»؛ لكنه فاته كثير من الأحاديث المرفوعة التي يذكرها الزمخشريُّ بطريق الإشارة، ولم يتعرض غالباً لشيء من الآثار الموقوفة. وصنَّف أبو علي عمر بن محمد بن خليل السكوني المغربي (المتوفى سنة ٧١٧ سبع عشرة وسبعمائة) كتاب «التمييز على الكشاف»، تكلم فيه في الإمام فخر الدين وغيره بما لا يعاب به عالم؛ (كما) ذكره السبكي وعلى الكشَّاف حاشية للإمام أبي العباس أحمد بن عثمان الأزدي الشهير بـ«ابن البناء»، ومن الحواشي حاشية الفاضل يوسف بن الحسين الحلواني مات (سنة ٨٥٤ أربع وخمسين وثمانمائة)، (وعلى الكشاف حاشية تامَّة في مجلّدين للفاضل علاء الدين علي المعروف بـ«بَهْلَوَان»، ناقش فيها مع القطب الرازي). وشرح أبيات الكشاف لبعض الأفاضل مختصر، أوله: «إن أولى ما يفتتح به الكتاب...» إلخ، ذكر فيه أن بعض إخوانه أشار إليه بعد أن شرح أبيات المفصل أنْ يَشْرَحَ أبيات الكشَّاف، فأجاب، وهي زهاء ألف بيت، أكثرها منثور (منثور) المقاطع، خافية معانيها على أكثر الأدباء حتى الفحول. (وشرح شواهد الكشاف) في مجلّدات لخضر بن محمّد الموصلي نزيل مكة المكرّمة، ذكره الشِّهَاب. و«مقتضب التمييز، في اعتزال الزمخشريُّ من الكتاب العزيز» للشيخ الفاضل أبي علي عمر بن محمد بن خليل السكوني صاحب «المنهج المشرق»، أوله «الحمد لله رب العالمين...» إلخ، وفي شرح خطبة الكَشَّاف مختصَرٌ لبعض الأفاضل، قال صاحب القاموس محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي (فيما كتبه على الخطبة)، قال بعض الطلبة: وأثبته بعض المعتنين بـ«الكشاف» في تعليق له عليه؛ أنه كان في الأصل (كتب) «خلق» مكان «أنزل» وبالآخرة (وأخيراً) غيره المصنِّف أو غيره؛ حذراً عن الشناعة الواضحة، فقول (هذا قولٌ) ساقطٌ جدًّا، وقد عرضته على أستاذي، فأنكر غاية الإنكار، وأشار إلى أن هذا القول بمعزل عن الصَّوَاب؛ لوجهين: أحدهما: أن الزمخشري لم يكن لتفوته اللطائفُ المذكورة

في «أنزل» وفي «نزل» في مفتتح كلامه، ويقبل كلمة خالية من ذلك، والثاني: أنه لم يكن يأنف من انتمائه إلى الاعتزال، وإنما كان يفتخر بذلك، وأيضاً: أتى عقيبه بما هو صريح في المعنى، ولم يبل (ولم يبال) بأنه قبيح وقد رأيتُ النسخة التي بخطِّ يده بـ«مدينة السلام» مختبئة في تربة الإمام أبي حنيفة خالية عن أثر كشط وإصلاح. انتهى. قال شمس الدين الأصبهاني ـ رحمه الله ـ في تفسيره «الجامع بين التفسير الكبير والكشاف»: تتبعت الكشاف فوجدتُ أن كل ما أخذه أخذه من الزجاج.

وهكذا، كان لكتاب الزمخشري قيمة عالية بين أهل العلم، استوجب لأجلها أن يوضع في مصاف أفضل الكتب وأجود الأسفار، فإليك أيها القارىء اللبيب قبل كتاب تفسير أبي القاسم جار الله الزمخشري المسمى: «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» مقدمة تتعلق بالتفسير ومدارسه.